تفريغ محاضرة

الزلازل .. دروس وعبر

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

٢٢ / ٧ / ١٤٤٤ هـ

من نحن ؟

نحن مجموعةُ نهلنا من معين دروس د. هند بنت حسن القحطاني، التي هطلت بروائها على قلوب السامعين، ولما شهدنا ذلك الهطل غيثا مُغيثا مريئا، عملنا بكلٌ جدٍ وحُبٍ على جميع المحتوى وتنظيمه ونشره ليسيلَ عذباً الى قلوبكم

نسعدُ بملاحظاتكم واستفساراتكم على البريد الالكتروني:

info@rawaa.org

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد ..

هذا الأسبوع لم يكن أسبوعاً عادياً في ظني، وهذا الأسبوع من الاثنين الماضي إلى هذا الاثنين ونحن جميعاً شُغلنا بأخبار الزلزال، وخلالها لم يتوقف الإعلام بكل أنواعه في نقل ما يحصل هناك ، من مقاطع للناس العالقين تحت الأنقاض أو الناس المفقودين أو الجرحى أو قصص انتشال عوائل بأكملها من هناك.

في خلال هذه الأيام لم تكن الصورة واضحة ومنذ بدأ هذا الزلزال بدأت الأخبار بـ 10 آلاف قتيل ثم 20 ألفا والآن وصلت 39 ألفا ممن قُتلوا ونحسبهم شهداء عند الله عز وجل من المسلمين منهم، هؤلاء الآلاف ماتوا في 40 ثانية فقط -يعني لم تُكمل الدقيقة حتى- وخلالها هُدمت الأحياء بأكملها على رؤوس أصحابها، وحينما نتحدث عن هذا الهدم فالمنطقة التي وقع فيها الزلزال قُدرت بحسب الإحصاءات أنها منطقة توازي دولتي هولندا وبلجيكا مجتمعة! فتخيلي كل هولندا وكل بلجيكا كأنها كلها تهدمت فهل أنت متخيلة حجم الدمار الذي حصل؟! فلم يكن هذا الزلزال **زلزالاً عادياً،** وليس مثله كمثل الأخبار التي نمر عليها مروراً عادياً، بل الذي حدث آية من آيات الله عز وجل وهو حدث كوني لابد أن نقف عنده ونعتبر قليلاً ونتأمل فيه ونتدبر ما الذي حصل وكيف حصل ولماذا حصل؟!

هذه المنطقة هي (في الشمال السوري وفي جنوب تركيا) وفي الشمال السوري هي أساساً منطقة مُهجّرين لاجئين هم هؤلاء الناس الذين هربوا من الحرب ومن الصواريخ ومن الدمار، وتركوا بيوتهم وانتقوا إلى هذه المنطقة، يقدر أعداد السكان فيها أكثر من 5 ملايين موجودين في بيوت أشبه ما تكون بيوت إسمنتية فقط بُنيت بشكل مؤقت حتى تقيهم البرد والحر، نزلوا في هذه البيوت فقط اتقاءً كأنها شيء مؤقت إلى أن يعودوا إلى بيوتهم

فأغلب الموجودين في تلك المنطقة هم أساساً من اللاجئين ومن المنكوبين سواء من الذين هُدمت بيوتهم أو خافوا من الحرب، وكان المتنفس والإمداد الوحيد لهذه المناطق -لأنها أصلًا مناطق محاصرة- هي مناطق الجنوب التركي، فمن خلالهم يمدونهم بالمعونات والغذاء والخيام وغيرها من الإمدادات الغذائية، ويشاء الله عز وجل ويُقدر أن هاتين المنطقتين بالذات التي يصيبها الزلزال فسواء منطقة المنكوبين أو مكان الإمدادات كلها دُمرت البيوت فوق أصحابها! فالنظر لمثل هذا الحادث هو أمر مفجعٌ حقًا، والنظرلأعداد القتلى مفزع مهول، أن يموت 39 ألفا (الإحصاءات في الجانب التركي فقط) في ثواني، غير القتلى في الجانب السوري الذين يقدرون بـ 50 أو 60 ألفا -والله العالِم- والنسبة لا زالت مرشحة للارتفاع .

لمّا نتأمل في حال هؤلاء الذين يعوزهم الفقر أساسًا، فالناس هناك بلا غذاء، ولا بيوت آمنة، وبعضهم يفتقد الماء والكساء حتى، وفوق هذا كله يحصل الزلزال كأنه يضاعف من مأساتهم ويضاعف من ابتلاءاتهم، لا يشك الإنسان أن هناك كثيرا من الأسئلة التي تتواتر في ذهن الإنسان وفي صدره في ما هي الحكمة وراء هذا؟! ولماذا هم؟ ولماذا تقع المصيبة على المسلمين؟ لماذا لم يكن في مكان آخر؟ بل جاءت على من هم منكوبون أصلًا وابتلاؤهم ما توقف منذ سنوات! كل هذه الأسئلة لابد أن نقف عندها قليلاً ونتدبر في هذه الآيات والحكم التي يعلمنا الله عز وجل إياها من خلال هذا كله.

فدعونا اليوم نقف ونتلمس شيئا من تلك الحكمة التي لم تتجاوز شيئا مما كان أصلاً منثورًا في دروسنا فنحتاج في مثل هذه المواقف فقط أن نضعها أمام أعيننا، فهناك دروس إيمانية وعقدية لابد للإنسان أن يستحضرها في هذا المكان وفي هذا التوقيت بالذات لأنه لا يُثبّت الإنسان في هذه اللحظة إلا إيمانه.

فدعونا نبدأ؛ وبدايةً نسأل الله أن يربط على قلوب أهلنا المكلومين هناك وأن يتقبل الله شهداءهم وأن يشفي جرحاهم ويداوي مرضاهم وأن يربط على قلوبهم بالرضا واليقين والإيمان .

نبدأ بالدروس المستفادة من هذا الزلزال، وأوصيكم ألا تسمعوها بقلب بارد كأنك متفرجة فقط، بل تخيلي نفسك فيمن أصُيب معهم، وممن فقد فقدهم، وتخيلي حالك هناك تحت الهدم وبين الجثث والجرحى والبرد والذعر، تخيلي الزحام من الابتلاءات حولك تعيشينه:

الدرس الأول : أن هذه الدنيا أصلاً لم تُخلق إلا للابتلاء ..

أساساً هذه الدنيا لم تخلق للنعيم، ولم تخلق لتكون جنة الله في أرضه، هي خلقت أساسًا للابتلاء قال الله عز وجل من اللحظة التي يتخلق فيها الإنسان من أمشاج يعني الآن هو يتكون يقول الله عز وجل: (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ) فمن أول لحظة يخلق فيها الإنسان يصاحبه معنى الابتلاء.

ويقول الله عز وجل: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) فما خُلِقت فكرة الموت ولا خلقت الحياة إلا ليبلونا الله عز وجل أيُّنا أحسن عملا.

ويقول جلّ جلاله: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) يعني أن حتى الخير بلوى وفتنة!

ويقول الله عز وجل أيضًا: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ).

ويقول الله عز وجل حينما أصاب المسلمين ما أصابهم في غزوة أحد، معلقًا على آلامهم في سبعين من الصحابة حينما قتلوا، وفي حمزة رضي الله عنه حينما جدعت أنفه وبقر بطنه، وفي مصعب بن عمير رضي الله عنه حينما مدد قتيلًا شهيدًا ثم لم يجدوا فيه ما يكفنوه ثم يقول عز وجل: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ).

إذن **الدرس الأول**: أن هذه الدنيا لم تخلق أساساً للنعيم وليست جنة ليعيش فيها الإنسان سعيدًا؛ هي خلقت لهذا الابتلاء، وأضيفي لهذه المعلومة شيئا آخر أن هذه الدنيا أصلا ليست ذات قيمة عند الله عز وجل وفي الحديث المعروف عن رَسُول اللَّه ﷺ: "لَوْ كَانَت الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّه جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْها شَرْبَةَ مَاءٍ".

[أخرجه الترمذي في سننه وقال الألباني : صحيح]

إذن كل صراع الحضارات الحاصل في هذا العالم، كل هذه الماديات التي تتنافس عليها الدول، وعروش الدول والقصور والأبنية، كل هذا ليس ذا قيمة عند الله عز وجل، فأن يحيا الإنسان أو يموت وهو صاحب حظ كثير أو قليل في الدنيا لا فرق بينهما، لأنها ليست هذه القيمة الحقيقية عند الله عز وجل، فهذه الدنيا هي مرحلة قصيرة جدًا يكتبها الله عز وجل لعباده ليعملوا فيها فيُمتحنوا فيها وليكون دار الخلود في الآخرة.

هذه الدنيا قد يظن إنسان أن من لم يأخذ حظًا منها فهو محروم، يعتقد لأني من الجنسية الفلانية إذن أنا محروم، أين ما ذهبت فالسُبل في وجهي مُغلقة، يظن أن أي من كان حظه من الدنيا قليل فهو محروم والحقيقة أنه ليس محروما، أنت حُرمتَ من الدنيا، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الْمَالَ مَنْ أَحَبَّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، ..."

[أخرجه البخاري في الأدب، وقال الألباني: صحيح موقوف له حكم الرفع]

إذن عطاءات الدنيا الوافرة بأن يكون عندك (بيت، قصر، أموال، صحة، أهل...) هذه كلها من النعم التي يعطيها الله الكافر والمؤمن والصالح والفاجر ويستوي فيها الناس؛ فهو سبحانه يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولكن لا يعطي الدين إلا من يحب، إذن هذه الدنيا ليست ذات قيمة بل إن الإنسان الذي لم يأخذ حظا من الدنيا ليس محرومًا، يقول النبي عليه الصلاة والسلام عما يحصل في الآخرة من أن أهل العافية الذين عاشوا في الرخاء وفي النعيم وما مرت بهم ابتلاءات وماتوا على ذلك أنهم يتمنّون كما في الحديث: " وَدَّ أَهلُ العَافِيَةِ يَومَ القِيَامَةِ حِينَ يُعطَى أَهلُ البَلَاءِ الثَّوَابَ لَو أَنَّ جُلُودَهُم كَانَت قُرِّضَت فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ"

طيب أهل البلاء كم ابتلوا في الدنيا؟ ثلاث عشرة سنة؟ خمس وعشرين سنة؟ أربعين سنة؟ سبعين سنة؟! ثم ماذا؟ ثم ماتوا وأمامهم الخلود السرمدي هناك، طيب وأنت كم تنعمت؟ عمرك في الأربعين وتقول الحمدلله حياتي هادئة وممتعة وسعيدة، طيب ثم ماذا؟ ثم ماذا سيحصل في الدار الآخرة فأهل العافية لما يأتون إلى يوم القيامة يودون لو أن أجسادهم قرضت بالمقاريض، يعني رأيتم المناشير الكهربائية؟ يودون لو أنهم نُشروا بها لما يرون من النعيم لأهل البلاء.

ولذلك الشيخ في قصة غلام الأخدود مع الساحر وكان الشيخ يتردد إليهم، فقال له الشيخ: يا بُني إنك قد بلغت من العلم ما بلغت وإنك ستبتلى.

لاحظوا أن سنة الابتلاء معروفة وقديمة منذ قدم الزّمان، فهذه القصة حصلت قبل عصر بني إسرائيل، ولذلك أيضًا فإن ورقة ابن نوفل عندما جاءه النبي عليه الصلاة والسلام فزعًا يحكي له ما حصل من حادثة جبريل عليه السلام لما نزل له، قال له ورقة: (يا ليتني كنت فيها جذعا) أي يا ليتني كنت صغيرًا لأنه حينها كان كبيرًا في السن (يا ليتني كنت فيها جذعا إذ يخرجك قومك) والنبي عليه الصلاة والسلام الرجل الذي بلغ أربعين سنة من عمره، محمد صلى الله عليه و سلم الأمين المحبوب في قومه وكل أمانات أهل مكة عنده لم يكن يتخيل أنه سيخرج، قال: (أو مخرجي هم) يعني أني بعدما بلغت هذا العمر وعشت هذه السنين معهم يخرجوني؟قال: (نعم لم يأت أحد بمثل ما أتيت به إلا عودي وابتُلي).

إذن سنة الله عز وجل هي هذا الابتلاء والابتلاء هذا له عدة حِكم:

الحكمة الأولى: ليعلم الله المجاهدين والصابرين.

تقولون الله سبحانه يعلم أصلًا من أهل الجنة فينا ومن أهل النار، ويعلم سبحانه الصالح فينا والعاصي منا، ويعلم خبايا أنفسنا و يعلم ما لم نفعله لو فعلناه كيف كان، فالله يعلم كل شيء، ولكن لتعذر أنت من نفسك فلو جاء يوم القيامة من غير هذه الابتلاءات لكنت قلت يا ربي أنت لو ابتليتني لوجدتني صابرًا لوجدتني مؤمنًا لوجدتني راضيًا بقضائك، لو ابتليتني لكن أنت ما ابتليتني!

فالله عز وجل يقدر لك الابتلاءات حتى تعلم أنت وتعذر من نفسك أيّ الناس أنت؟ من الصابرين ومن الصادقين؟

أم من الناس الذين ادّعوا الإيمان وكانوا قد كذبوا بذلك؟ يقول الله عز وجل: (مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) [ال عمران 179]

وهذه الآية جاءت بعد غزوة أحد أيضًا، لأن المسلمين لما كانوا قلّة ولما كانوا ضعافاً في مكة ما دخل في الإسلام إلا من كان صادقاً، فلما ذهبوا إلى المدينة وانتشر الخير وفتحت خيبر وأضافت لهم الأموال وانفتح الخير على الناس دخل في الإسلام من ليس بأهله، ولا يمكن أن يبقى هذا الصف المسلم هكذا من غير أن يتمايز ومن غير أن يبتليهم الله عز وجل وينخلهم ليعلم من الصادقون فيهم ومن الكاذبون.

ويبتلي الله عز وجل العباد **للحكمة الثانية: لأن الابتلاء علامة خير للعبد وعلامة حب الله للعبد.**

وقد يأتي من يقول: أنا هذا الذي أخاف منه، أنه إذا أحبني الله ابتلاني، وأنا أضعف من أن أبتلى، لذلك أكون بعيدة أفضل! وهذا التفكير ليس صحيح، بل إذا أراد الله بعبده خيرًا ابتلاه، يقول النبي ﷺ: (من يرد الله به خيرا يصب منه) فيبتلي عبدًا بأن توجعه الدنيا بجانب منها، لماذا؟ لأن هناك درجة يريد سبحانه أن يوصل عبده لها ولا تأتيه إلا بالابتلاء، فيكون هذا البلاء رفعة في درجاته وتطهيراً لسيئاته، وعلى قدر البلاء تكون الرفعة.

يقول النبي ﷺ (لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده الذي يحب وماله حتى يلقى الله تعالى وليس عليه خطيئة)

وتأملوا الكلمة (لا يزال البلاء بالمؤمن و المؤمنة) يعني ليس يوماً ولا يومين ولا ثلاثاً ولا شهراً، يمكن سنة يمكن خمس سنين يمكن 12 سنة و البلاء قائم(في نفسه) فقد يكون هذا الأذى في نفسك في مرض أو خاطر أو أيًا كان، أو في أهله (وولده الذي يحب) فيكون الابتلاء عليه عذابًا عليك من الهم الذي يجلبه، (وماله) بأن يضيق أو يذهب في لحظة، لا يزال الابتلاء قائمًا حتى يمشي في الأرض وما عليه خطيئة واحدة.

تخيلوا يا أخواتي هؤلاء الذين رأيناهم في حادثة الزلزال من بعيد فقط، وسمعنا منهم من قال فقدت عائلتي كلها 10 أفراد ماتوا كلهم، أو الجد الذي مات أبناؤه وأحفاده فذهب الجيل في لحظة عين، هؤلاء لما يقابلوهم فلا نسمع منهم إلا كلمات الحمد والرضا والشكر، كم أجرهم عند الله؟ فهؤلاء لا يزال الله يبتليهم بهذا البلاء حتى ما يبقى عليهم خطيئة.

ثم يقول النبي ﷺ في الحديث: (إن الرجل لتكون له عند الله المنزلة)

فالله عز وجل يكتب لعبده شيئاً معيناً مثلا منزلة الفردوس الأعلى مع الأنبياء و الصديقين لخير وتقوى يعلمه في هذا العبد، لكن هذا العبد أعماله التي يعملها وصلواته وطاعاته لا تكفي أن تنوّله هذه المنزلة العالية، (فما يبلغها بعمل فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها) لاحظوا الله عز وجل يبتليه بما يكره! والدنيا لو كانت على مزاج الإنسان فهو لن يختار أن يبتلي نفسه بما يكره، لكن الله العليم الحكيم يبتلي هذا الإنسان بما يكره لأنه يعلم أنه إذا قامت القيامة سيكون أسعد الناس، وقارني بين بلاء لمدة 12 سنة أو 10 سنين أو 20 بمقابل مليونين سنة في نعيم سرمدي؟ فماذا لو كانت سنين لا معدودة وخلود أبدي؟ لا مجال للمقارنة أصلاً.

وابتلاء الله جل جلاله للإنسان قد يكون خيرًا للعبد كذلك لأنه قد يكون قائماً على معصية، وقد يكون بعيداً كل البعد عن الله تعالى، فلما يبتليه بمرض أو غيره يشعر أن ما كان يسعده في السابق من أمور محرمة ليست مصدراً للسعادة، وإذا أتاه من يذكره بها من أصحابه يقول له هذا ليس وقته، لأنه يشعر في داخل نفسه أنه الآن محتاج إلى الله، وإذا طال البلاء تزيد مدة تعلقك من الله وقربك منه حتى تكره ما كنت عليه.

يقول الله عز وجل: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا) هل هو تعذيب لهم؟ لا بل تكملة الآية: (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

غالبًا تذكر هذه الآية على صيغة نكاية، يعني رأيتم؟! إن ما حصل لكم إنما حصل بما عملت أيديكم، لكن لما تقرأين نهاية الآية تجد فيها اللطف والرحمة: يعني هذا "بعض الذي عملوا" ولو استمريت سيكون الحال أشدّ (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الروم 41]

كلٌ يريدك له إلا الله يريدك لنفسه، يريدك للآخرة، ما يريدك للدنيا، فهذه الابتلاءات جزء منها حتى ترجع وتتوب، يقول الله عز وجل: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) [الأنعام]42

هذا التضرع هو الغاية وهو الحكمة من البأساء والضراء التي مرت على الأقوام السابقة، لاحظوا حكمة الله عز وجل ورحمته ليست فقط نكاية بهم، لا هي نُذُر الله عز و جل ينذر بها عباده ويحرك بها قلوبهم، وهذه تكون الحكمة الثالثة من الابتلاءات:

الحكمة الثالثة: ليستخرج الله من عبده عبوديات لا يمكن أن تستخرج إلا بمثل هذه الابتلاءات.

في قلوب أصحاب الابتلاءات تعالي وتأملي الصبر فيهم، فضلًا عن الرضا، فضلًا عن الشكر! من هذا الذي يستطيع أن يشكر الله سبحانه في نازلة نزلت به؟ ومن يطيق أن يشكر الله عز وجل؟ ومن يطيق أن يرضى تمام الرضى؟ عندهم يُرى حسن الظن وإن عظم المصاب، اليقين بأن الله هو الرحيم وهو الودود وأن الله له حكمة فيما أصاب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، تأمل الرجاء فيهم والدعاء الذي لم يتوقف، هذه عبوديات لا يمكن أن تستخرج في حال الرخاء لذلك البعض ممكن يظن أن الإيمان مجرد أن تؤمن وتصلي وتصوم، وأمور أخرى من الخير، وبهذا يكون عنده حصانة من الابتلاءات! يظن أنه هكذا يكون خالياً من السيئات فلماذا يُبتلى؟! وينسى

أن الإيمان أصلًا لا يعطي هذه الحصانة ضد الابتلاءات، بل إن أشد الناس بلاءً هم الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، وإذا سألت إذًا ما فائدة الإيمان؟ فائدة الإيمان أنه يعطيك حصانة من نوع آخر، ففي وقت الرخاء إيمانك وعبوديتك لله عز وجل تنفعك في تقوية بنائك النفسي، فتكون لك بمثابة البوصلة التي لما تأخذك الدنيا يمنة أو يسرة وتغريك بمال أو جاه أو سمعة أو هوى تقوم هي بدورها بإرجاعك صوابك، وتقويمك على معيار الرشاد، ليكون القلب صافياً وخالصاً لوجه الله، هذا في الرخاء؛ وفي الشدة وفي الأزمات والفواجع -مثل فاجعة الزلزال- يأتي الإيمان هنا ليعطي الحصانة من نوع آخر ليثبت قلبك حينما تتزلزل القلوب، فغيرك في مثل هذا المصاب يقولون له: كم اللي ماتوا؟ يقول: زوجتي وعيالي. يعني كل أهله!

فتخيل نفسك لو كنت مكانه كيف ممكن في هذا المقام أنك تصبر وتثبت وتقول: لا نقول إلا ما يرضي ربنا.

فليس هناك مثل الإيمان الذي يثبت القلب في هذه اللحظات.

يقول الله عز وجل: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) [سورة إبراهيم 27]

ولو فكرت ما الذي غير الإيمان ممكن أن يثبت قلبك وفؤادك؟ وأنت مدفونة بين طبقات الإسمنت والحجارة والحديد تتجرعين الألم وأطفالك حولك تسمعين صياحهم أو قد لا تسمعينه لأنهم ماتوا، وأنتم محبوسين 6 أو 7 أيام ولا يوجد حتى بصيص أمل أو حتى بصيص نور يتسلل إليك، كل الشعور أنك تموتين موت بطيء! هُنا في مثل هذه الأهوال لا يثبت الإنسان إلا إيمانه.

ومن المواقف التي رأيناها ولا يمكن أن ينساها الإنسان:

رجل محشور في مساحة 50 سم وما يظهر منه إلا رأسه ويصورونه محشور في طبقات من الاسمنت مدفون في الداخل فلما وجهوا عليه الكشافات وقالوا له سنخرجك قوّي حيلك يا حج، قال: أعطوني ماء أريد أن أصلي. كان هذا أول ما قاله! ما قال عجلوا بسرعة بإخراجي أو أعطوني ماء أشربه، فقالوا له: يا حج نخرجك إن شاء الله و تصلي قال: لا أنا لي يوم ما توضيت وأريد أن أصلي.

متخيلين؟ الناس هذه ما تمثل، هم الآن في مصيبة وألم ولن يكون بالطبع هو وقت للتمثيل، لكن لأن الإيمان غرس في قلوبهم كان هذا ردهم.

وحادثة أخرى لامرأة لما أتوا لإنقاذها وعندما بقيت مسافة صغيرة لإخراجها، تذكرت أنها ستخرج للناس في الشارع بلا حجاب، رفضت وقالت ما أخرج بدون حجاب! هذه أيضًا لا تمثّل وإلا من يتذكر في عزّ مصيبته الحجاب؟! لكن الإنسان لما يعيش على العفة والحشمة ما يمكن أن يأتي في مثل هذه اللحظات ويقول أنا بحل، فهذه المرأة أرادت أنها لو ماتت أن تموت بحجابها، وهي تعلم أن المكان خطير وفيه أكثر من 1000 هزة ارتدادية وهي تعرف أنها ممكن تموت!

هؤلاء عاشوا على الإيمان وثبتوا عليه حتى تساوت عندهم الحياة والموت في مثل هذه المواقف.

وأنت تسمع هذه المواقف تظنّ أنها تصدر من الكبار فقط!

والحقيقة أنه رصدت لنا مواقف عظيمة من أطفال، كمثل الطفل الذي يلعب بالدراجة على الأنقاض، يقول له المذيع: وين أمك وخواتك؟ إيش صار معكم؟ فيحكي: أمي وخواتي كلهم ماتوا، هم راحوا للجنة وأنا لسى! بهذا الإيمان هو يرد أنهم سبقونا للجنة ونحن ما زلنا هنا!

لمثل هذا الرد العظيم نقول: يرحم الله بطن جابك، كيف يفكر هذا الولد؟ من الذي غرس فيه هذا الهم وهذه الرسالة، يعني ما ماتوا وانتهت الدنيا بل نحن نلحقهم.

فحتى من الأطفال نأخذ مواقف الثبات!

وهذا موقف آخر لطفل نحسبه نحن طفلًا وهو رجل من الرجال عمره 14 أو 15 سنة

وهو يصور بجواله داخل الأنقاض ووجهه كله غبار ويقول: ما أعرف بعيش ولا لا، كان السقف انهار عليه وهو مدفون تحته، ويسمع من الخارج صراخ الجيران وهو يرد عليهم: نحن هنا نحن هنا الحمد لله الحمد لله.

هذا مراهق، السؤال: تعتقدون أولادنا يفعلون مثله؟ يثبتون نفس الثبات؟

فعبادات الرخاء هي صمامات الأمان في لحظات الفواجع، ولا يمكن أن يثبت إلا من يثبته الله عزوجل

وكذلك مواقف تكبيرهم عندما يكبرون عند كل إنسان يجدونه حياً أو ميتاً، هذا التكبير وهم يعلمون أن ما أصابهم من هذا المصاب إلا من الله.

هذا الطفل الذي يقول: الحمد لله الحمد لله وهو يعلم في داخله أن الذي قدر القدر هو الله ومع ذلك هو مؤمن هذا الإيمان الخالص وأن ما كان من عند الله فهو خير.

أين مقامات الصابرين الشاكرين؟ هذا مقام عالٍ لا يمكن أن يصل إليه أي أحد.

لذلك تجدينها في فلتات لسانهم حين يقولون يا ربي راضون وهم مهدمون! خرج وما عنده إلا الذي عليه ويقول: يا ربي راضي يا ربي راضي لك العتبى حتى ترضى، إن لم يكن بك غضب علينا فلا نبالي، يا ربي أنت راضي فكل الدنيا تهون! هل تخيلتم كيف يعيشون بمثل هذه الابتلاءات؟! هذا ثبات ومقام إيماني لا يمكن أن يستخرج إلا بمثل هذه الابتلاءات، ولذلك قال النبي عليه السلام: (عجبًا لأمرِ المؤمنِ ، إنَّ أمرَه كلَّهُ له خيرٌ ، و ليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ ، إن أصابتْهُ سرَّاءُ شكر وكان خيرًا لهُ ، و إن أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ فكان خيرًا له)

الحكمة الرابعة: لماذا يبتلي الله العباد؟ لأن الابتلاء هو طريق التمكين.

ولا يمكن أن ينزل الله نصره ولا يعيد للمسلمين مجدهم وهم بنفوس ضعيفة وبشخصيات مهزوزة واهتمامات تافهة وتكالب على الدنيا وترف، فمثل هذه الابتلاءات تصقل النفوس ولما نقول:

ليعلم الله المجاهدين من الصابرين، ويعلم من هو الصادق ومن هو الكاذب لأن هذه الابتلاءات تجعلك تتعالى على الدنيا، قال الله عز وجل: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا) [سورة السجدة 24]

قال الشافعي: "لا يمكن حتى يبتلى" فلا يمكن أن ينزل نصر الله وتمكينه حتى يبتلون هذه الابتلاءات وتتمايز فيها صفوفهم

جاء خباب إلى النبي عليه السلام وهو مع سمية وعمار بن ياسر وبلال وغيرهم ممن عذبوا في مكة يقول: شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلَّا اللَّهَ، والذِّئْبَ علَى غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ.

لما طلبوا منه النصر كان قد بلغ السيل الزبى، فبلال يؤذى وسمية قتلت شهيدة وهي أول شهيدة نحسبها كذلك عند الله عز وجل وعمار بن ياسر يؤذى يأتون بالصرصور أمامه ويقولون هذا ربك ويقول نعم لا يدري ما يقول!

عذبوا في أول الإسلام تعذيباً لم يعذبه أحد.

فماذا قال له النبي عليه السلام؟ هل طبطب عليه وقال صبرًا لكم الجنة؟ هل أعطاه أيًا من النعيم الذي هو موعود به؟ لا، قال: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ

هذا الابتلاء لابد أن يكون وهو سنة من سنن الله عز وجل، وأمر الله وتمكينه ونصره قادم قادم، لكن القضية أنكم قوم تستعجلون، ولا يمكن أن يكون هذا التمكين إلا بهذا البلاء.

هذا كله في الدرس الأول: أن الدنيا لم تخلق إلا للابتلاء...

والدرس الثاني: أن الذي ابتلاك هو الله فلا تتشتت ولا تجزع، هو الرحمن الرحيم الغفور الودود وهو الباسط وهو الكريم الحكيم الذي لا يقضي قضاء إلا وهو خير فلا تتشتت بالأسئلة ولا تجزع ولا تتسخط، وإذا سألت فلماذا كل هذه الآلام؟ ولماذا كل هذه المعاناة؟

إذا كان الله هو الرحمن وهو الرحيم فلنرجع إلى أول ما تدارسناه في العقيدة أن من أركان الإيمان: أن تؤمن بالقدر خيره وشره

هذا الشر والتعبير بلفظ الشر هو باعتبار ما يراه الإنسان في دنياه أنه شر

وإلا فإن الله لا يخلق شراً محضاً ولا يقدر شراً محضاً ولا يقدر شراً محضاً، يستحيل ذلك في ذات الله عز وجل فلا يكتب الله شراً محضاً على عباده.

هو هذا الدرس الذي نتعلمه في كل أسبوع يوم الجمعة في سورة الكهف حينما خرق الخضر السفينة فاستنكر موسى عليه السلام وقال: (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) (71)

وهو نفس الدرس الذي نتعلمه حينما قتل الخضر الغلام فلم يفهم موسى عليه السلام وقال: (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا) (74)

موسى عليه السلام أحد الأنبياء وهو من أولي العزم من الرسل ومع ذلك الأحداث الدنيوية ما كانت واضحة أمامه لماذا تقتل نفساً لم تقتل أحدًا؟ ولماذا تخرق السفينة؟ ما كان يعلم أن وراء تلك السفينة أقوام من الفقراء ومن المحتاجين وأن هذا العيب البسيط الذي رأيته أنت أنه حادث جلل فيه من التفريج عليهم ما لم تعلمه أنت.

لذلك النبي ﷺ يقول (والخير كله في يديك والشر ليس إليك) بل الجن كانت أفقه منا حين قالت عن الله عز وجل في اللحظة التي حرست السماء بالشهب قال تعالى: (وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) [سورة الجن 10]

فنسبت الخير والرشد إلى الله عز وجل وأما الشر فلم تنسبه إلى الله وهذا من الأدب مع الله عز وجل.

إذن احفظها وضعها في قلبك واغلق عليها أن الله لا يقضي قضاءً فيه شر محض، بل لابد أن تكون مآلاته إلى خير هذا ما نعرفه أو مالا نعرفه لكن هذا ما نؤمن به.

لذلك حقيقة الإيمان بالقدر أن تحبه فيما تحب وفيما تكره قال عمر بن عبدالعزيز: (قال أصبحت ومالي سرور إلا في مواطن القدر، أحب ما قد كتبه الله لي ولو كان ما قد كتبه الله خارج عن ما أتخيل)

ولذلك كان يقول السلف: أحبه إليه أحبه إليّ .. أي مادام الله أحب الذي كتب فأنا أحبه.

تخيل هذا التسليم بالقضاء والقدر لا يمكن إلا لنفس تربت على فكرة الإيمان بالقدر خيره وشره.

الدرس الثالث: أن الله عز وجل يريدك من أجل الآخرة وأنت تريد الدنيا.

هذه الحادثة حصلت منذ سنوات لا علاقة لها بالزلزال، لشاب لاعب كُرة، أصيب برباط صليبي وأجرى عملية في ركبته وأصبح من الضروري أن ينقطع عن لعب الكرة مدة 6 أشهر وهو في الثلاثينات من عمره فلما حصل ما حصل جلس في بيته مدة طويلة، وخلالها اقترب من الله كثيراً وأصبح يراجع نفسه ويتساءل، لأن ما حصل كان نتيجة لسقوط فقط فمادياً وعلمياً لا يوجد مبرر لما حصل إلا أن الله كتب لا أكثر ولا أقل

يقول: فجلست مع نفسي، وفتحت المصحف لأني كنت أسمع أن الإنسان في لحظات الابتلاء يفتح مصحفه ويقرأ وكنت أبحث عن ما يجيبني عن أسئلتي .. لماذا أنا ؟ وأنا شاب مازلت أود أن ألعب الرياضة؟

وفتحت المصحف ولم أجد سوى آيات الجنة والنار والكفار والمؤمنين وما أعد الله لهم وأخبار الأمم السابقة والأنبياء فبدأت أتساءل وأقول: يا رب القرآن كله مثل ذلك؟

لا يوجد به جواب لأسئلتي؟ فلا يوجد جواب عن الصحة .. الحياة .. الرياضة

ومؤخراً انتبهت للدرس أننا نهتم بأمر الدنيا والقرآن ينتشلك لهم آخر وهو هم الآخرة.

فأنت تريد الدنيا وتحرص عليها والله عز وجل يعلمك أن الدنيا ليست دار قرار، وليست هي المهم، بل فتِّح عينيك، فالآخرة هي الأهم.

لذلك الابتلاءات تصيب الإنسان لتبصّره أن الدنيا ليست مهمة، وأن الأرض التي تقف تعتقد أن عليها استقرارك هي التي في يوم ما ستهتز، وأن البيوت التي نرجع لها في نهاية اليوم ونحن آمنون مطمئنون هي نفسها البيوت التي هدمت على أصحابها وكانت هي مصدر الفزع على أصحابها، لا شيء يبقى إلا الله عز وجل .. هذه الابتلاءات تنتشلك من هذه الدنيا ومن حطام الدنيا إلى الهدف الأكبر من وجودك ومن حياتك

يقول الله عز وجل (إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142) [آل عمران]

هذه الآيات كلها حكم في الابتلاء، منها أن يتخذ الله الشهداء وهذا معنى "الاصطفاء".

فهؤلاء الأشخاص الذين لا نعلم منهم إلا أرقاماً بالآلاف، تزداد إحصاءاتهم كل يوم، نعدّهم جثثاً منظرها مخيف ومؤلم، هم عند الله شهداء نحسبهم كذلك.

وصاحب الهدم شهيد حينما عد النبي ﷺ الشهداء فجعل مع الشهداء .. الغريق .. وقال وصاحب الهدم شهيد

إذن هؤلاء الذين راعنا موتهم هم عند الله شهداء وهذه المرتبة الأعلى بعد مرتبة النبوة لذلك حينما نعلم أن صاحب الهدم شهيد فهذه فيها جبر لقلوبهم، فمع هذه الموتة المريعة الصعبة، نجد أن الله يجبر قلوبهم بأجر الشهداء ونحن نعلم أن الشهيد الذي يموت في ساحة الحرب تحت القنابل والصواريخ والأسلحة والذي قد تفجر فيه لغم ولم يبقَ منه طرف لا يجد من ألم الموت إلا كألم القرصة

أنت تراه جثة ممزعة من كل طرف وهو لم يجد من هذا كله إلا كألم القرصة، واصطفاهم الله عز وجل حين قال (وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(140) [آل عمران]

ومن دعائنا أن ندعو بـ اللهم اختم لنا بالشهادة، ولكن الشهادة لا يستأهلها أي أحد .. فالصبي الصغير (يبلغ من العمر 6 سنوات) كان يقول: "احنا ما استحقينا هم طيبين هم راحوا .. احنا ما استحقينا"

قال عز وجل (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (69) [سورة النساء]

(وصاحب الهدم شهيد) وإذا كنتم رأيتم المشهد وهم ينتشلونهم ويكبرون وتسمعون صيحاتهم بالتكبير بمجرد أنهم انتشلوا إنساناً حيّاً فاعلم أن احتفال الملائكة بالإنسان الذي مات أشد من هذا الاحتفال لأنه عرس شهيد لأن الملائكة تطير بهم إلى السماوات السبع وما فوقها.

الدرس الرابع: الله عز وجل يصيبنا بالابتلاء حتى لا نتجبر ولا نطغى ولنعلم دائماً أننا عباد مخلوقون، ذرة في هذا الكون.

فعلمك قاصر فلا تعلم ما الذي يجري، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن الله يفعل ما يريد، هذا الشيء يجب أن يكون مستقراً عندك لذلك هناك أشياء كثيرة لا تجد لها أجوبة بل مهما حاول علماء الجيولوجيا ومهما حاول العلماء الماديين تفسير وتلمس تلك الحكمة قد لا يجدون شيئا ومالك إلا أن تسلم أنك عبد مخلوق، ذرة في هذا الكون وأن الله هو القوي المتين الذي يفعل في كونه ما يشاء.

فهذه الابتلاءات تأتي لتضعك في حجمك الحقيقي، حجمك الحقيقي لأنك أنت الذي كنت تدك الأرض دكا (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) (21 - سورة الفجر)

فعندما تمر عليك أخبار في أقل من دقيقة أنه ما يقرب من أربعين ألف يموتون، وعوائل بأكملها تنتهي، ثم لا يتغير أي شيء في حياتك ولا تتغير صلواتك ولا تتصدق بشيء من الخير الموجود عندك، هذا لا يمكن أن يكون قلب مسلم فيه روح الإيمان، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

وقال عليه الصلاة والسلام مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، لو أصبعك أصغر أصبع في قدمك يؤلمك فكل الجسم كله يتداعى بالسهر والحمى، هذا المثل الذي يضربه النبي عليه الصلاة والسلام هو مثال لما يمكن أن يؤجر عليه الإنسان في مثل هذه الأحوال، فتعاطفك معهم، حملك لهمهم فيما يمكن، تتبع أخبارهم، تقصي ما ينقصهم، الشيء الذي من الممكن أن تساهم فيه، هذا الهم يؤجر عليه الإنسان عند الله عز وجل، لكن لا تقف سلبيًا، لا تكتفي بالمشاهدة عن بُعد أو تقول اللهم حوالينا ولا علينا، أو ما لنا علاقة فيما حدث لهم، ولذلك الله عز وجل يقول (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) (140 – سورة آل عمران)

فإذا علمت هذا أرِ الله منك ما يحب وانصر إخوانك بما يمكن أن تنصرهم فيه ولو بأقل القليل، فلو لم تكن تمتلك المال، فلا أقل من أن تنصرهم بدعائك وفي سجداتك وفي صلواتك.

الدرس السادس: توازن ولا تنصدم ولا تجزع.

وعندما نقول توازن أي توازن في مشاعرك وعود نفسك على الصبر والرضا وتمام اليقين، فعندما يقول النبي عليه الصلاة والسلام إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء شكر، فهذا تمام التوازن الذي لابد أن تعود نفسك عليه، فعندما تكون في لحظة السراء وتنفتح عليك الدنيا، فلا تعاند ولا تطغى ولا تتجبر، وإذا أصابتك لحظة الضراء فلا تنكسر، ولا تظن أن الدنيا رمتك على قوس واحدة، ولذلك قال علي رضي الله عنه: إن صبرت مر عليك القدر وأنت مأجور وإن جزعت مر عليك القدر وأنت مأزور، إن صبرتم أجرتم وقدر الله نافذ وإن جزعتم وزرتم وقدر الله نافذ.

وكما قال عمر رضي الله عنه: إما أن تصبر صبر الأكارم، وإما أن تسلو سلوَ البهائم.

فعود نفسك على هذا الصبر وعلى هذا التوازن، والصبر من اسمه فيه مرارة لكن الإنسان يعود نفسه عليه مستعينًا بالله عز وجل متوكلًا عليه لا متوكلًا على حوله وقوته. ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام علمنا هذا الكلام في الحديث: (واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك).

فإذا عرفت أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك فلا تستهلك نفسك بالويل، لا تقل: لو ما كنا في هذا المكان لو ما نمنا في هذه الغرفة، لو ما كنا كذا وكذا، "فلو" تستهلكك وتستهلك مشاعرك، وتفتح عمل الشيطان لأن مهمته هو إفساد نفسيات المؤمنين وتخويفهم، وكلما عشت مهزوزاً كنت طُعماً حلواً للشيطان (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (175 - سورة آل عمران) فهو يريد بها تخويف العباد المؤمنين، طيب في المقابل ماذا تقول بدلًا من "لو"؟ قل قدر الله، أو قدر الله وما شاء فعل، فالله الذي يقدر والله الذي يشاء.

لذلك (وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ) (78 - سورة النساء)

قال الله عز وجل (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (8 – سورة الجمعة) ما نهرب منه هو ملاقينا، فالقضية ليست أين تكون؟ وفي أي مكان؟ لكنه أمر الله نافذ فعود نفسك على هذا التوازن.

الدرس السابع: أن تعود نفسك على الصبر، وأن تعرف كيف تصل إلى هذه المرحلة.

تعلم كيف تصل إلى مرحلة الصبر، حتى إذا وقعت في البلاء تكون عالمًا بالذي يُصبّرك، فتستحضر تلك المعاني التي تهدئ من روعك، فما الذي يمكن أن يصبرك؟ ماهي الأشياء التي توصلك إلى هذه المرتبة من الإيمان والصبر؟ هل هو تذكر ما أعده الله عز وجل من النعيم للصابرين مثلًا وما أعد الله عز وجل لأهل البلاء من تكفير لسيئاتهم ورفعة لدرجاتهم ومن زيادة حسناتهم.

والصبر المصاحب للإيمان والرضا بالقدر يجعل الإنسان الذي مات حوله في المصيبة كل أهله وبقي هو وحيدًا أن يدرك جواب سؤال: لماذا لم أمت معهم؟ أنت لا تعلم قد يكون الله يريدك أنت ويهيئك بالذات لأمر كبير قد يكون الله عز وجل أخر وفاتك لأنه يريد أن يستعملك في أمر يكون فيه صلاحك أنت وصلاح هؤلاء الأموات الذين ذهبوا بصلاحك وبدعائك لهم وبأعمال الخير التي تهديها إليهم فيكون في بقائك أنت خير لك ولأهلك، فأنت ما تعلم ما الحكمة الإلهية.

نتذكر الرجل الذي يقول مات أهلي كلهم 11 شخص كلهم ماتوا، فهذا لو يضرب أخماساً بأسداس ويضرب رأسه بكل الجدران ما يمكن أن يعرف ما الحكمة ولماذا هو الذي عاش من بينهم، ولكن حينما تسلم الأمر لله عز وجل وتستحضر هذه المعاني وجوائز الصبر بأن الله قد يهيئك لأمر أكبر ولعل الله يريد منك قربًا أكثر!

إحدى السلف رضي الله عنها لما انقطعت واحدة من أصابعها ابتسمت لا شعوريًا فقيل لها: تبتسمين؟ قالت حلاوة أجرها أنستني ألم قطعها، بضعًا مني تسبقني إلى الجنة! هي أخذتها بهذا المفهوم أن قطعة منها تسبقها للجنة فيارب ألحقني بها، هذه المشاعر عندما يستحضرها في وقت البلاء تكون شيئًا آخر.

الدرس الثامن: احمد الله عز وجل أنها ليست في دينك.

وتخيلي مصيبة الملحد الذي لا يؤمن بالله ربًا لو وقع ما وقع، وتخيليه وهو مدفون في كل تلك الطبقات ولا يستطيع أن يقول يا رب ساعدني! ففي أي مصيبة دنيوية يصاب بها الإنسان احمدي الله أنها ليست في دينك وأن الله لو أخذ الجسد لكنه أبقى قلبك يعرف ربه فهذه نعمة، وتذكري مصيبة الكافر أو المرتد أو الفاجر أو الفاسق البعيد عن ربه، فهذه المصائب لما تمر على البشر يتساوى فيها كل من مرت عليه من مؤمن وكافر وفاسق، ولكن هناك من الناس من تخرج من هذا الابتلاء وهي مأجورة ومن الناس من تخرج من هذا الابتلاء وهي مأزورة.

الدرس التاسع: جهز نفسك فهذه الدنيا هي دار ابتلاء.

ولا يمكن أن يمر إنسان من غير هذا الابتلاء، والحديث عن الابتلاءات بالكلام فقط سهل طبعًا، لكن لمّا يصاب الإنسان في نفسه يرى من أمر الله عز وجل أمرًا آخر، فالإنسان يتجهز لمثل هذه الفواجع ولمثل هذه النوازل ويتجهز لها بالصبر وبالإيمان وبعبادات الرخاء، لذلك الأذكار على سبيل المثال أعتقد أنه ستختلف طريقة قراءتك لها، لن تقوليها بقلب عادي بعدما شاهدت من مشاهد الزلزال، يكفي مشاعرك التي ستتغير لما تقولين: "اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عوراتي وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال من تحتي" قال المفسرون أن "أغتال من تحتي" يعني أن يخسف به، فهذه الأذكارعلمنا إياها النبي عليه الصلاة والسلام لتحفظنا ولتنفع في مثل هذه المواطن فسلي الله العافية واسألي الله أن يستر عوراتنا وأن يؤمن روعاتنا وأن لا يبتلينا، والإنسان لا يتمنى البلاء ولا يبحث عنه ولا يقول أنا جاهز له لأري الله من نفسي خيرًا، لكنه إن وقع صبر.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: (لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا)

ولذلك الإنسان يجهز نفسه بالصبر والعبادة، وهناك عبادات يدفع بها البلاء مثل الصدقة والصلاة وذكر الله عز وجل ولذلك ذكر الله جاء في مواطن نِزال وحروب حيث كان يأمر الله عز وجل المؤمنين أن يذكروا الله ذكرًا كثيرًا وفي لحظات الابتلاءات.

والله عز وجل يقول {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}سورة البقرة[٤٥]

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يفزع إلى الصلاة

فتخيلي مع حدوث زلزال والناس تهتز، والنبي عليه الصلاة والسلام يفزع إلى الصلاة لأنه يفزع إلى القوي وإلى القوي المتين، هل تخيلتم؟

الدرس العاشر والأخير: إن نصر الله قريب وإن فرج الله قادم

وهذا الكلام لا نقوله فقط تطييبًا للخاطر وليس مجرد آمال معلقة لا، بل إن الله عز وجل تحقيقًا سيجعل نصرًا لهؤلاء المكلومين والمستضعفين من المسلمين، وهذه سنة الله عز وجل في قدره وفي كونه فما يمكن لأي ناس ولا أمة من الأمم أن تمكن حتى تبتلى، فإذا نزل البلاء وإذا ضاق البلاء وإذا اشتد البلاء كان ذلك إيذانًا بفجر النصر وبفجر الفرح من عند الله عز وجل، ولذلك المتتبع لسنن الله عز وجل في الكون وما يحصل الآن على الأرض يعلم أن الأرض تتهيأ لأمر عظيم يهيئ به العباد والبلاد، وهذه الحوادث والزلازل جزء من التهيئة، فلما نقول جهز نفسك وأعد هذه العدة لأنك تعلم إذن أن ما يريده الله وما سيفرج به عن عباده هو حاصل وهذا تحقيقًا لا تعليقًا لكن أنت أين دورك في هذا كله؟

قال الله عز وجل: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} سورة البقرة[٢١٤]

من الذي يقول متى نصر الله؟ إنه الرسول عليه الصلاة والسلام المؤيد بالوحي، والواسطة بين الله وخلقه حينما استغلق عليه الأمر، واشتدت عليه وعلى المؤمنين معه البأساء والضراء، ولا يوجد شيء في الأفق يلوح لهم بالنصر، فإذا وصل الحال كذلك وزلزلوا فحينها يؤمل المؤمن خيرًا أن فرج الله قريب وأن نصر الله قريب

قال النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: (أمتي هذه أمةٌ مرحومةٌ ، ليس عليْها عذابٌ في الآخرةِ ، عذابُها في الدُّنيا ، الفتنُ ، والزلازلُ ، والقتلُ،)

فما دامت العذابات محصورة في الدنيا والدنيا رخيصة فهذا من مظاهر رحمة الله بنا، وهذا به تكفير لسيئات الأمة وجعلها تفد على الله عز وجل مطهرة من كل ذنب.

جاء عمر إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقد أثر الحصير على ظهره على الصلاة والسلام فبكى عمر مقارنًا بين حال النبي عليه الصلاة والسلام يعني أنت يا رسول الله أنتَ على الحصير وكسرى وقيصر على الذهب والزبرجد في في عروشهم وقصورهم فقال له النبي عليه الصلاة والسلام مبتسمًا قال : (يا بنَ الخطَّابِ أما ترضَى أن تكونَ لنا الآخرةُ ولهم الدُّنيا)

فلو أخذوا الدنيا كلها فليأخذونها، المؤمن إن فاز في الآخرة فاز بكل شيء فلبيك إن العيش عيش الآخرة

يقول الله عز وجل {فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} سورة آل عمران[١٨٥]

حياة الدنيا مجرد حياة الغرور، والحياة الحقيقية هي (فلا تنشغل بالدنيا ولا تنشغل بما يحصل فيها، أنت تأكد من موقعك في كل ما يحدث، وأين أنت في قدر الله عز وجل، وماذا أعددت لنفسك وماذا جهزت في نفسك من الصلاح ومن الإيمان ومن التوبة ومن الإنابة إلى الله عز وجل، لتمهد لنفسك أنه لو وقع مثل هذا الشيء فلن يثبت في المحنة إلا مؤمن.

ولنتذكر أنه من علامة السوء أن تقع هذه الأحداث حولنا ونراها بأعيننا على الهواء مباشرة ونسمع أنينهم وصراخهم ثم نعود لحياتنا كان شيئًا لم يكن، من السوء ألا نتّعظ بمثل هذه المشاهد، وهل نحن ننتظر أن يحصل لنا مثل ما حصل لهم حتى نتعظ؟

كانت هذه دروس عشرة من وحي هذا الزلزال الذي حصل.

أسأل الله عز وجل مرة أخرى أن يربط على قلوبهم وأن يرحمهم وأن يغفر لهم وأن ينجي المستضعفين منهم وأن يتقبل شهدائهم وأن يداوي جرحاهم وأن يشفي مرضاهم وأن يربط عليهم بالرضا والإيمان والصبر واليقين وأن لا يجعلنا ممن خذلهم وأن يجعلنا ممن استعملهم في نصرتهم ونصرة دينه وكتابه وسنة نبيه هذا والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .